الفصل الأول من رواية:

جنة عدن

بقلم أرنست همنغواي

كانا يقيمان حينذاك بفندق في «ليجرو دي روا»، يطل على القناة التي تمتدّ من مدينة «أيجس مورتس» ذات المباني العالية، وتنتهي عند البحر. كان بإمكانهما رؤية أبراج مدينة «أيجس مورتس» عبر سهل «كاراما جيو» المنخفض. وفي وقت ما من كل يوم تقريباً، كانا يركبان دراجتيهما على امتداد الطريق الأبيض المتاخم للقناة. وعند ارتفاع مدّ البحر صباحاً ومساء، كان سمك القاروس يأتي معه، وكان بإمكانهما رؤية سمك البوري وهو يقفز في هياج، هروباً من سمك القاروس، ومراقبة فقاعات المياه المنتفخة الناجمة عن هجوم سمك القاروس.

وهناك عند الحاجز الذي يمتدّ داخل مياه البحر الزرقاء المبهجة، كانا يقومان بصيد السمك، ويسبحان بالقرب من الشاطىء، ويساعدان الصيادين كل يوم في سحب شباكهم الطويلة المحمّلة بالأسماك إلى الشاطىء الطويل المنحدر. في ركن مواجه للبحر بأحد المقاهي، كانا يتناولان بعض المشهّيات الخفيفة ويرقبان إبحار قوارب صيد سمك «الماكريل» عبر خليج «ليونز». كان الوقت أواخر الربيع وسمك «الماكريل» يهاجر جماعات، وعلى الميناء كان الصيادون منهمكين في عملهم. كانت البلدة تعطي شعوراً بالابتهاج والألفة. وأعجب الاثنان بالفندق الذي كان يحتوي أربع غرف في الدور العلوي ومطعماً ومنضدتين للبلياردو في الدور الأرضي الذي يواجه القناة والفنار. أما الحجرة التي كانا يقيمان فيها، فكانت تشبه لوحة «فان جوخ» لحجرة في «آرليس»، فيما عدا أنه كان يوجد بها سرير لشخصين ونافذتان كبيرتان، بإمكانك أن تتطلع منهما إلى المدينة البيضاء وشاطىء «بالافاس» المشرق، عبر المياه والمستنقع ومروج البحر الخضراء.

وعلى الرغم من أنهما كانا يأكلان بشهية، فقد كانا يشعران دائماً بالجوع، ويتوقان إلى طعام الإفطار الذي تناولاه في المقهى، حيث طلبا خبز البريوش وقهوة بالحليب وبيضاً، وأنواع المأكولات المحفوظة التي اختاراها، وكانت الطريقة التي طلبا بها أن يُسلق البيضُ لافتة للنظر. كانا دائماً يشعران بجوع شديد لوجبة الإفطار، لدرجة أن الفتاة كان ينتابها صداع شديد حتى تحتسي القهوة التي تقضي على هذا الصداع. وقد تناولت قهوتها دون سكّر، بينما كان الشاب يروّض نفسه على تذكّر ذلك.

في هذا الصباح كانت وجبة الإفطار تتكوّن من خبز البريوش والفراولة الحمراء المحفوظة والبيض المسلوق، وقوالب من الزبد سرعان ما كانت تذوب وهما يقلبانها مع البيض داخل الوعاء المخصّص لذلك، مع إضافة قليل من الملح والفلفل المجروش. كان البيض كبيراً وطازجاً، لكن بيض الفتاة لم يكن

ناضجاً مثل بيض الشابّ. تذكر ذلك بلا عناء، وكان سعيداً ببيضه الذي كسر قشرته من أعلى بسهولة بالملعقة، وأكله مع قليل من الزبد وضعه فوقه ليبرّده، هذا بالإضافة إلى جوّ الصباح الباكر المنعش، ومذاق حبّات الفلفل المجروش والقهوة الساخنة، ووعاء القهوة بالحليب ورائحته العبقة.

كانت قوارب الصيد قد انطلقت بالفعل. انطلقت في الظلام مع أول هبّة نسيم، فاستيقظ الشاب والفتاة وسمعا صوت القوارب، فالتفّ كل منهما في حضن الآخر تحت ملاءة السرير وناما ثانية. وفي حالة ما بين اليقظة والنوم مارسا الحبّ مع غبش الصباح، وإن كانت الحجرة لم تزل معتمة إلى حدّ ما. بعدها استلقيا في سعادة وإرهاق، ثم مارسا الحب مرة أخرى. بعد ذلك شعرا بالجوع الشديد لدرجة أنهما اعتقدا أنهما لن يظلاّ على قيد الحياة حتى موعد الإفطار، وها هما الآن في المقهى يأكلان ويرقبان البحر والمراكب الشراعية. وكان هذا يوماً جديداً آخر.

سألته الفتاة: - «فيم تفكر؟»

- «لا شيء».

- «لا بدّ أنك تفكر في شيء ما».

- «كنت أشعر بشيء ما فحسب».

- «ما هو؟»

- «السعادة».

فقالت: «لكنني جوعانة جداً. هذا شيء عاديّ، ألا تعتقد ذلك؟ أتشعر بالجوع الشديد دائماً عندما تمارسّ الحبّ؟».

- «عندما يحبّ المرء إنساناً ما...».

فقالت: «أوه، أنت تعلم الكثير جداً عن ذلك».

- «لا».

- «لا يهمّني. أنا أحب ذلك الأمر، ولا داعي لأن تقلق بخصوص أيّ شيء، أليس كذلك؟»

- «ولا أيّ شيء».

- «ما الذي تعتقد أنه ينبغي علينا عمله؟».

قال: «لا أعرف. ما رأيك؟».

- لا يهمني على الإطلاق. إذا كانت لك رغبة في الصيد فسأكتب أنا خطاباً، أو ربما خطابين، وبعد ذلك يمكننا السباحة قبل تناول الغداء».

- «حتى تشعري بالجوع؟».

- «لا تقل ذلك. فأنا جوعانة بالفعل، ونحن لم ننته من تناول طعام الإفطار بعد».

- «يمكننا التفكير في الغداء».

- «وبعد الغداء؟».

- «ننام قليلاً مثل الأطفال المطيعين».

قالت: «هذه بالفعل فكرة جديدة تماماً. لماذا لم نفكر في ذلك قط؟».

قال: «أحياناً تهبط عليّ ومضات مثل هذه، فأنا من النوع المُبْتَكِر».

قالت: «وأنا من النوع المدمِّر. ولسوف أدمّرك. وسيضعون لوحة تذكارية على حائط المبنى خارج الغرفة. سأستيقظ أثناء الليل وأفعل لك شيئاً لم تسمع عنه أو تتخيّله أبداً، كنت سأفعل ذلك الليلة الماضية، لكنني كنت شديدة النُّعاس».

- «أنت نعسانة جدّاً، لدرجة لا يخشى معها أن تكوني خطرة».

- «لا تطمئن نفسك من خلال أيّة حماية زائفة. أوه يا عزيزي! دعنا ننتهي من الإفطار بسرعة حتى يحلّ وقت الغداء».

كانا يجلسان هناك يرتديان قمصان الصيادين المقلّمة والبنطلونات القصيرة، التي اشترياها من متجر لبيع لوازم المراكب، وقد أصبح لونهما اسمر للغاية، وتجعد شعرهما وكلح لونه من أثر الشمس والبحر. اعتقد معظم الناس أنهما أخ وأخت إلى أن قالا إنهما متزوّجان. لم يصدّق البعض أنهما متزوّجان وأسعد ذلك الفتاة غاية السعادة.

في تلك الأعوام، كان قليلٌ جداً من الناس يقصدون منطقة البحر المتوسّط في الصيف، ولم يأت أحد إلى «لجرودي روا» فيما عدا قلة من الناس من «نيمس» لم يكن هناك كازينو ولا وسائل ترفيه، وفيما عدا فترة الشهور الحارّة عندما يأتي بعض الناس للسباحة، لم يكن يوجد أحد بالفندق. كان الناس لا يرتدون قمصان الصيادين آنذاك، وكانت الفتاة التي تزوّجها هي أول فتاة رآها على الإطلاق ترتدي قميصاً من هذا النوع. لقد

اشترت القمصان لهما ثم غسلتها في حوض غرفتها بالفندق لتزيل عنها خشونتها. كانت القمصان صلبة وخشنة ومعدة للارتداء في الظروف الصعبة، لكن الغسيل أكسبها نعومة، والآن أصبحت سخيّة وخفيفة بما فيه الكفاية، حتى أنه عندما نظر إلى الفتاة في ذلك الوقت، بدا نهداها جميلين تحت القميص السخيّ.

لم يكن هناك أحد يرتدي البنطلونات القصيرة في المنطقة المحيطة بالقرية، ولذا لم تستطع الفتاة أن ترتديه عند ركوبها الدراجتين، أما داخل القرية فلم يكن الأمر مهماً، لأن الناس كانوا ودودين جداً، فيما عدا قسيس القرية الذي أبدى تبرّمه. لكن الفتاة ذهبت للصلاة يوم الأحد وهي ترتدي تنّورة وقميصاً من الكشمير ذا أكمام طويلة، وشعرها مغطّى بوشاح، على حين وقف الشاب في آخر الكنيسة مع الرجال. تبرعا بعشرين فرنكاً، وكانت تزيد على دولار حينذاك، ومنذ أن أخذ القسيس هذا التبرّع بنفسه، عرف وجهة نظرهم تجاه الكنيسة، أما مسألة ارتداء البنطلونات القصيرة في القرية فقد اعتبرت نوعاً من التحرر باعتبارهما أجنبيين أكثر من كونها محاولة للخروج عن أخلاقيات أهل «كاماراجيو». لم يكن القسيس يتحدث إليهما عندما كانا يرتديان البنطلونات القصيرة، ولم يكن يستهجن ذلك منهما، لكن عندما كانا يرتديان البنطلونات الطويلة في السماء، كان كلٌّ منهم ينحني للآخر.

قالت الفتاة: «سأذهب لكتابة الخطابات».

نهضت وهي تبتسم للخدم، وخرجت من المقهى.

سأله الخادم عندما استدعاه الشاب، واسمه ديفيد بورن، ليدفع له الحساب:

- «هل سيدي ذاهب للصيد؟».
- «أظن ذلك. كيف حال المدّ؟».

قال الخادم: «هذا المدّ جيّد جداً. لديّ بعض الطعم إذا كنت ترغب».

- «أستطيع الحصول على شيء منه في الطريق».
- «لا. استعمل هذا. إنها ديدان رملية ولديّ منها الكثير».
- «أتستطيع مرافقتي؟».
- «أنا في الخدمة الآن. لكن من المحتمل أن أحضر إليه لأرى ماذا تفعل. هل معك أدوات الصيد؟».
- «إنها في الفندق».
- «انتظرْ حتى أحضر لك الديدان».

* * *

في الفندق رغب الشابّ في الصعود إلى الحجرة ليرى الفتاة، لكن بدلاً من ذلك، رأى سنارة الصيد البوص ذات العُقَل والسلّة وبها أدوات الصيد خلف مكتب الاستقبال حيث تُعلّقُ مفاتيح الغرف، فعاد أدراجه إلى الخارج حيث كان الطريق متوهّجاً ثم إلى المقهى ثم إلى نهاية الحاجز الأملس. كانت الشمس ساخنة، لكن النسيم كان منعشاً والمدّ كان قد بدأ ينحسر لتوّه. كان يودّ لو أنه أحضر صنارة آليّة وطعماً معدنياً، حتى يمكنه أن يطرحها بعيداً عبر تدفّق المياه من القناة فوق الصخور على الجانب الآخر، لكن بدلاً من ذلك جهز صنارته الطويلة بفلينة الطفو، وترك الطعم يطفو برقّة في العمق حيث تخيّل أن السمك من الممكن أن يطعمها.

بقي كذلك فترة من الزمن من غير أن يحالفه الحظّ، وأخذ يراقب قوارب صيد سمك «الماكريل» وهي تغدو وتروح في عرض البحر الأزرق، وكذلك ظلال السحب العالية على سطح الماء. ثم غطست العوامة إلى أسفل بشكل حادّ، فشدّ الخيط بزاوية حادة، وراح يجذب الصنارة إلى أعلى مقاوماً جذب السمكة التي كانت قوية تناضل بشراسة حتى كان الخيط يصدر صوتاً على صفحة الماء. حاول أن يمسكها برقّة على قدر ما يستطيع، فانثنت الصنارة الطويلة إلى حدٍّ كادت أن تنكسر فيه عند الخيط من أثر مقاومة السمكة التي لم تكف عن محاولتها للذهاب إلى عرض البحر. وسار الشاب مع السمكة بمحاذاة الحاجز ليخفف من الضغط. لكن السمكة ظلّت تجذب، حتى أنه عندما جذب ربع عصا الصنارة أُجبر على أن تكون العصا تحت الماء.

كان الخادم قد حضر من المقهى مبهوراً. كان يتكلم بمحاذاة جانب الرجل قائلاً: «سايرها. سايرها. سايرها برقّة على قدر ما تستطيع. فلسوف تتعب حتماً. لا تدعها تفلت. عاملها برقّة. برقّة. برقّة.

ولم يكن أمام الشاب من وسيلة ليكون أكثر رقّة من ذلك إلا

أن ينزل إلى الماء مع السمكة، وهذا غير معقول لأن القناة عميقة. وفكر لو أنّه استطاع فقط أن يسير معها بمحاذاة الشاطىء. لكنهما كانا قد وصلا إلى نهاية الحاجز. وكان أكثر من نصف الصنارة تحت الماء الآن.

وناشده الخادم قائلاً: «سايرها. برفق فقط. إنها مطاردة صعبة».

غطست السمكة إلى العمق، وأخذت تجري بشكل متعرّج، فانثنت عصا الصنّارة الطويلة من أثر ثقلها وقوة اندفاعها. ثم طلعت إلى السطح مندفعة ثم غاصت إلى أسفل مرة أخرى. واكتشف الشاب أنه على الرغم من أن السمكة شعرت بقوة كتلك التي يبلغ مداها العنف التراجيدي، فإن هذه القوة قد خفّت الآن، واستطاع أن يقودها إلى نهاية الحاجز ومنه إلى القناة.

قال الخادم: «افعل ذلك برفّة. أوه برفّة الآن، برفّة من أجلنا جميعاً».

ولأكثر من مرتين أجبرته السمكة على تحويل طريقه إلى عرض البحر، لكن الشاب في المرتين أعادها ثانية، وها هو الآن يقودها برفّة عبر الحاجز في اتجاه المقهى.

سأله الخادم: «كيف حال السمكة؟».

- «سمكة رائعة، لكننا تمكّنا منها».

قال الخادم: «لا تقل ذلك. لا تقل ذلك. ينبغي أن ننهكها. ننهكها. ننهكها».

قال الشاب: «لقد اتعبت السمكةُ ذراعي».

فسأل الخادم وكله أمل: «أتريد أن أسحبها بدلاً منك؟».

- لا، بحق الله».

فقال الخادم: «أرجوك برفق، برفق، برفّة، برفّة، برفة».

وسحب الشاب السمكة في القناة حتى وصل إلى ما بعد شرفة المقهى.

كانت السمكة تسبح تحت الماء لكنها ما زالت قوية، وتساءل الشاب عما إذا كانوا يريدون سحب السمكة عبر طول القناة داخل المدينة. وتجمع أناس كثيرون حينذاك، وبينما كانوا يمرّون بالقرب من الفندق رأتهم الفتاة من النافذة، فصاحت: «أوه، يا لها من سمكة رائعة! انتظروني! انتظروني!».

لقد رأت السمكة بوضوح من أعلى، طولها ولمعانها في الماء، وزوجها وهو يمسك الصنارة المثنية على شكل مزدوج تقريباً، وجمهرة الناس الوافدين - وعندما وصلت إلى شاطىء القناة، توقّف الجري واصطدام الناس ببعضهم وتوافدهم.

كان الخادم في الماء عند حافة القناة، وزوجها يوجّه السمكة ببطء عند الحافة حيث تقوم بعض الحشائش النامية، وكانت السمكة الآن فوق صفحة المياه. وقد انحنى الخادم واضعاً يديه على جانبي السمكة ثم رفعها وإبهاماه في خياشيمها، وصعد بها إلى حافة القناة. كانت سمكة ثقيلة والخادم يحملها على صدره ورأسها تحت ذقنه وذيلها يتدلّى بين ساقيه.

ربّت العديد من الرجال على ظهر الفتى احتفاء به، وقبلته امرأة من سوق السمك. ثم أحاطته الفتاة بذراعيها وقبّلته فقال لها: «هل رأيتها؟».

وتوجّه الجميع لرؤية السمكة وهي ملقاة على جانب الطريق، فضيّة كالسالمون، وظهرها براق داكن في لون معدن بندقية صيد. كانت سمكة جميلة ممتلئة ذات عينين مفعمتين بالحياة، وأخذت تتنفس ببطء وانكسار.

- ما نوعها؟».

قال: «الذئب. من فصيلة سمك القاروس. ويسمونه «البار» أيضاً. إنه نوع مدهش من السمك. هذه أكبر واحدة رأيتها في حياتي».

وتوجّه الخادم واسمه «أندريا»، إلى ديفيد فأحاطه بذراعيه وقبّله ثم قبّل الفتاة.

قال: «هذا شيء يستحقّ التهنئة، يا سيدتي. حقيقة شيء يستحق. فلم يحدث على الإطلاق أن اصطاد أحدٌ سمكةً كهذه بمثل هذه الأدوات».

قال ديفيد: «من الأفضل أن نَزِنها».

كانوا قد دخلوا المقهى، ونّحى الشابّ أدوات الصيد جانباً، بعد الوزن، واغتسل، ووضعت السمكة على لوح من الثلج المجلوب بسيارات الشحن من «نيمس» لتثليج محصول صيد

سمك الأسقمري. بلغ وزن السمكة أكثر من خمسة عشر رطلاً. وظلّت وهي فوق الثلج، فضية اللون جميلة، لكن لون ظهرها تحول إلى اللون الرمادي. عيناها وحدهما لم تزل فيهما حياة. كانت قوارب صيد الأسقمريّ قد عادت في تلك اللحظة، وقامت النسوة بتفريغ حمولة السمك اللامع بألوانه الزرقاء والخضراء والفضية في سلال، وحَمْلِ هذه السلال الثقيلة على رؤوسهن إلى مخزن السمك. كان صيداً وفيراً والمدينة مشغولة وسعيدة.

سألت الفتاة: «ما الذي سنفعله بهذه السمكة الكبيرة؟».

فقال الشاب: «سيأخذونها ويبيعونها. إنها كبيرة جداً حتى نقوم بطهيها هنا، وهم يقولون إنّ من الحماقة أن نقطعها. من المحتمل أن يرسلوها إلى باريس مباشرة. ويكون مستقرّها بأحد المطاعم الكبيرة. أو ربما يشتريها رجل ثريّ جداً».

قالت: «كان منظرها جميلاً جداً في الماء، وكذلك عندما رفعها اندريا. لم أستطع أن أصدق أنها بمثل هذا الحجم عندما رأيتها من النافذة، وأنت وحشد من الجمهور يتبعك».

- «سنحصل على واحدة صغيرة لنا لنأكلها، وستكون رائعة جداً. واحدة صغيرة تشوى بالزبد والأعشاب. ستكون مثل شرائح سمك القاروس في البيت».

قالت: «لقد أسعدني صيد السمكة. ألم نحظ بقدر من المتعة الرائعة؟».

كانا يشعران بالجوع لتناول وجبة الغداء، وكانت زجاجة النبيذ الأبيض باردة، فأخذا يشربان وهما يأكلان الكرفس والفجل الصغير ومخللاً بيتياً من وعاء كبير. كان سمك القاروس مشوياً وآثار أسياخ الشواء تبدو على قشرته الفضيّة، والزبد ذائباً في الطبق الساخن. كما كان ثمة شرائح من الليمون لعصرها على السمك وخبز طازج جلب من المخبز، وذلك النبيذ الذي كان يبرد ألسنتهم من حرارة البطاطس المحمرة، نبيذ أبيض غير معروف من نوع جيد، غير حلو، لكن المطعم كان فخوراً بتقديمه.

قالت الفتاة: «نحن لسنا متحدّثين بارعين أثناء الطعام، هل أضايقك يا عزيزي؟».

ضحك الشاب.

- «لا تسخر مني، يا ديفيد».

- «أنا لا أسخر منك، كلا. أنت لا تضجرينني. فأنا أشعر بالسعادة لمجرد النظر إليك، حتى لو لم تنطقي بكلمة أبداً».

صب لها كأساً صغيرة أخرى من النبيذ، وملأ كأسه.

قالت الفتاة: «لدي مفاجأة كبيرة، لن أقولها لك. هل أقولها؟».

- «أيّ نوع من المفاجآت».

- «أوه إنها بسيطة جداً، لكنها معقدة جداً».

- «قوليها لي».

- «كلا. ربما أعجبتك وربما لم تستطع أن تتقبلها».

- «يبدو أنها خطيرة جداً».

قالت: «إنها خطيرة بالفعل. لكن لا تسألني، سأذهب إلى غرفتي لو سمحت».

دفع الشاب حساب الغداء وشرب النبيذ المتبقّي في الزجاجة. ثم صعد إلى الدور العلوي. كانت ملابس الفتاة مطويّة على أحد كراسي «فان جوخ» وهي في انتظاره في السرير والغطاء يسترها. كان شعرها مُرسلاً على الوسادة وعيناها تضحكان، ورفع هو الغطاء فقالت: «أهلاً يا عزيزي، هل تناولت غداء طيباً؟».

بعد أن استلقيا معاً وذراعه تحت رأسها، سعيدين مسترخيين، شعر بها تحرك رأسها من جانب إلى جانب وهي تمسحه بخدّه. كان ملمس شعرها ناعماً، لكنه بدا مشوّشاً من أثر الشمس والبحر. وكان منسدلاً على وجهها حتى أنه لمسه بينما كان رأسها يتحرك، وقد بدأت تداعب بظرف واستطلاع، ثم قالت له برقّة: «هل تحبّني حقاً، هل تحبّني؟».

فأومأ برأسه وقبّل رأسها ثم أدارها واحتواها بين راحتيه وقبّلها في شفتيها.

فقالت: «أوه، أوه».

واستلقيا فترة طويلة يحتضن كل منهما الآخر بشدة. قالت:

- «وهل تحبّني تماماً بالشكل الذي أنا عليه؟ هل أنت متأكد».

قال: «نعم. ونعم جداً جداً».

- «ذلك لأنني سأتحوّل».

قال: «لا، لا. لن تتحوّلي».

قالت: «بل سأتحوّل، وهذا من أجلك. ومن أجلي أيضاً. لا أودّ أن أتظاهر بغير ذلك. لكن هذا سيعني شيئاً بالنسبة لك. أنا على ثقة من ذلك، لكن لا ينبغي أن أفصح به».

- «أنا أحب المفاجآت، غير أنني أحب أن يجري كل شيء بالطريقة نفسها التي تجري بها الأمور في هذه اللحظة».

قالت: «إذن ينبغي ألاّ أفعلها. أوه! أنا حزينة، لقد كانت مفاجأة هائلة، مدهشة وخطيرة. فكرت فيها عدة أيام، ولم أتخذ قراراً حتى هذا الصباح».

- «افعليها، لو كنت في حاجة إليها حقاً».

قالت: «إنها كذلك، وسأفعلها. لقد أعجبك كل ما فعلناه حتى الآن، أليس كذلك؟».

- نعم».

- «لا بأس».

انزلقت من فوق السرير ووقفت معتدلة بساقيها الطويلتين السمراوين وجسدها الجميل الذي اكتسب سمرة كاملة من ذلك الشاطىء البعيد الذي يسبحان فيه دون ملابس البحر. ورفعت كتفيها إلى الخلف وذقنها إلى أعلى وهزّت رأسها فانسدل شعرها الأصفر المشوب بالسمرة حول خدّيها، ثم انحنت إلى الأمام فانسدل وغطّى وجهها. ارتدت القميص المقلّم من أعلى رأسها ثم هزّت رأسها ثانية وجلست على الكرسي أمام المرآة القائمة على طاولة الزينة، ومشطت شعرها إلى الخلف وهي تنظر إليه متفحّصة. كان يبلغ كتفيها. هزّت رأسها أمام المرآة. ثم ارتدت بنطلونها الفضفاض وربطته بالحزام وانتعلت حذاءها الأزرق الفاتح المتين.

قالت: «يجب أن أذهب إلى «أيجيس مورتس».

قال: «عظيم، سأذهب معك أيضاً».

- «لا. ينبغي أن أذهب وحدي. فهذا متّصل بالمفاجأة».

قبّلته مودّعة وانصرفت، وأخذ يراقبها وهي تركب دراجتها ماضية على الطريق في سهولة ويسر وشعرها يتطاير في الهواء.

كانت شمس ما بعد الظهر حينذاك تغمر النافذة، والحجرة حارّة للغاية. وقد اغتسل الشابّ وارتدى ملابسه وذهب يتمشى على الشاطىء. كان يودّ أن يسبح، لكنه كان متعباً، وبعد أن سار بمحاذاة الشاطىء ثم في ممرّ تتخلّله أعشاب بحرية، يؤدّي إلى طريق في منطقة داخلية، عاد منه إلى الشاطىء ومنه إلى الميناء ثم صعد إلى المقهى. وفي المقهى وجد الصحيفة، وطلب لنفسه براندي بالماء لأنه شعر بالجوع الشديد من أثر ممارسة الحب.

كانا قد تزوّجا منذ ثلاثة أسابيع ووصلا إلى «أفينيون» قادمين من باريس بالقطار، ومعهما دراجتاهما، وحقيبة كبيرة تحتوي على ملابسهما وحقيبة من القماش، وحقيبة تُحمل على الظهر. أقاما في فندق فخم في «أفينيون» وتركا الحقيبة الكبيرة هناك وفكرا في الذهاب بالدراجات إلى «بونت دي جارد»، لكن رياح «المسيترال» كانت تهبّ، فاتجها معها إلى «نيمس» ومكثا بعض الوقت في مقهى الأمبراطور ثم ركبا دراجتيهما إلى «أيجيس مورتس» والريح الشديدة ما فتئت تهبّ خلفهما حتى وصلا إلى «ليجرو دي روا» وبقيا هناك منذ ذلك الحين.

كانت الأمور تسير بشكل رائع، وكانا سعيدين حقاً، ولم يكن يعرف أن بإمكان المرء أن يحب إنساناً ما بهذا الشكل الكبير، لدرجة عدم الاهتمام بأيّ شيء آخر، ويبدو ما عداه غير موجود. كان لديه مشاكل كثيرة عندما تزوج، لكنه لم يفكر في أيّ منها، ولا في الكتابة، ولا في أيّ شيء فيما عدا أن يكون مع هذه الفتاة التي أحبها وتزوّج بها، ولم يعد يعتريه ذلك الصفاء الفجائي الهائل الذي كان يحدث له دائماً بعد الجماع.

لقد انتهى ذلك. أما الآن، عندما كانا يمارسان الحب، فقد كانا يأكلان ويشربان ويمارسان الحب ثانية. كان عالماً بسيطاً جداً خاصة وأنه لم يستشعر السعادة الحقيقية أبداً مع أيّ إنسان آخر. اعتقد أن الوضع لا بدّ أن يكون كذلك بالنسبة لها، وبالتأكيد كانت تتصرّف على هذا النحو، لولا حدث اليوم بخصوص التحوّل والمفاجأة. لكن من المحتمل أن يكون تحولاً سعيداً ومفاجأة طيبة. وقد جعله البراندي الممزوج بالماء الذي احتساه، عندما يقرأ الصحيفة المحلية، يسرح متأملاً فيما حدث.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ أن بدآ رحلة شهر العسل التي يتناول فيها شراباً من البراندي أو الويسكي دون أن يكونا معاً. لكنه لم يكن يكتب، وكانت مبادئه الخاصة تجاه الشراب، بألاّ يشرب إطلاقاً قبل الكتابة أو أثناءها. لا شك أنَّ من الجيد أن يعاود العمل، لكن ذلك سيأتي في حينه كما يعرف جيداً، كما ينبغي عليه أن يتذكر ألاّ يكون أنانياً بصدد ذلك، وأن يجعل مسألة الكتابة هذه واضحة على قدر ما يستطيع، وأن مسألة العزلة المفروضة هذه، ستكون شيئاً مؤسفاً، وهو ليس فخوراً بها. كان على يقين بأنها سوف تتقبّل ذلك بشكل لطيف، وسيكون لديها مبرراتها، لكنه كره أن يفكر في الكتابة، في العمل، في البدء فيها وهما في مثل تلك الظروف التي هما فيها الآن، لا يمكن أن يبدأ أبداً دون أن يكون هناك وضوح بالطبع، وتساءل عما إذا كانت قد عرفت ما يفكّر فيه، وأن ذلك هو السبب الذي دفعها للتفكير فيما هو أبعد من الواقع والبحث عما هو جديد حتى لا يتحطّم شيء. لكن ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء؟ لا يمكن لهما أن يكونا ألصق ببعضهما أكثر مما هما عليه الآن، ولن يكون هناك سوء فهم بعد ذلك. ستكون هناك السعادة فقط، ورغبة كل منهما في الآخر، ثم الجوع والتزود بالأكل والبدء من جديد.

اكتشف أنه شرب البراندي الممزوج بالماء وأن الوقت تجاوز الظهيرة بكثير. طلب زجاجة أخرى وبدأ يركّز في قراءة الصحيفة. لكن الصحيفة لم تثر اهتمامه، وبينما كان يتطلع إلى البحر وشمس آخر النهار الثقيلة تطغى عليه سمع صوتها المخنوق وهي قادمة إلى المقهى قائلة: «هاللو يا عزيزي».

أقبلت مسرعة إلى المنضدة وجلست ورفعت ذقنها ناظرة إليه بعينيها الضاحكتين ووجهها الذهبي المنمش. كان شعرها مقصوصاً مثل الأولاد. ليس بين بين ولكن بشكل قاطع، ممشطاً إلى الخلف وكثيفاً كالعادة، لكن الجانبين قُصّا بدرجة كبيرة، حتى أن أذنيها اللتين كانتا غير ظاهرتين على جانبي رأسها، أصبحتا ظاهرتين، كذلك قصّ الشعر الداكن في رأسها حتى المنبت بشكل متدرّج إلى الخلف وناعم.

وقالت: «قبّلني أرجوك».

قبّلها وتطلّع إلى وجهها وإلى شعرها وقبّلها ثانية..

قالت: «أيعجبك؟ تحسّس كم هو ناعم».

تحسسّ شعرها من الخلف.

- «تحسّس خدّيَّ وما قبل أذنيّ. مرّر أصابعك على جانبي رأسي».

قالت: «أترى؟ هذه هي المفاجأة. أنا فتاة. لكنني الآن ولد أيضاً، وأستطيع أن أفعل أيّ شيء، أيّ شيء، وأيّ شيء».

قال: «اجلس هنا إلى جواري، ماذا تريد، يا أخ؟».

قالت: «أوه شكراً لك. سيكون لي حقوقك نفسها». ألا ترى أن المسألة خطيرة؟ أليس كذلك؟».

- «نعم. أدرك ذلك».

- «ولكن ألم أُحسِنُ صنعاً بفعلي هذا؟».

- «ربما».

- «لا تقل ربما. كلا. لقد فكرت في ذلك. فكرت فيه مليّاً. لماذا يتحتّم علينا أن نلتزم بقواعد الآخرين؟ ما نحن إلا نحن».

- «لقد استمتعنا بوقت طيّب ولم أشعر بالتزام نحو أيّ قواعد».

- «هل تسمح فقط وتضع يدك على شعري ثانية؟» فعل ذلك وقبّلها.

قالت: «كم أنت لطيف! وأنت معجب بشعري فعلاً. أستطيع أن أشعر بذلك وأن أقوله. ليس هناك ما يجبرك على أن تحبّه. فلتعجب به في البداية فقط».

قال: «أنا معجب به. خاصة ولك مثل هذا الرأس الجميل الذي يزداد جمالاً مع بروز وجنتيك اللطيفتين».

سألته: «ألا يعجبك من عند الجانبين؟ إنها ليست مجرد تصفيفة شعر أو شيء من هذا القبيل. بل هي قصة ولد حقيقية وليست مجرد موضة».

- «من الذي قَصَّه لك؟».

- «الحلاّق في «أيجيس موريتس» الحلاّق نفسه الذي قصّ شعرك منذ أسبوع. لقد طلبت أنت منه أن يقصّ شعرك بطريقة

معيّنة، فطلبت أنا منه أن يقصّ شعري بالطريقة نفسها. كان لطيفاً جداً ولم يدهش على الإطلاق. لم ينزعج على الإطلاق، قال لي: بالضبط مثل شعرك؟ فقلت بالضبط. ألا يعني ذلك شيئاً بالنسبة لك، يا ديفيد؟».

قال: «أجل».

- «سيعتقد ضيّقو الأفق أن ذلك شيء غريب. لكننا ينبغي أن نكون مزهوّين بذلك. أنا أحبّ أن أكون مزهوّة».

جلسا هناك في المقهى يرقبان انعكاس الشمس الغاربة فوق البحر والغسق وهو يزحف على المدينة، وشربا البراندي الممزوج بالماء.

توافد الناس على المقهى ولم تصدر عنهم تلميحات غير مهذّبة عند رؤيتهم للفتاة، لأنهما كانا الأجنبيين الوحيدين في القرية، وقد أقاما الآن أكثر من ثلاثة أسابيع، وكانت هي ذات جمال رائع فأعجبوا بها. ثم ما كان من أمر اصطياد السمكة اليوم، وبالطبع دار حوار كثير عن ذلك الموضوع، لكن ذلك الأمر الآخر كان حدثاً كبيراً بالنسبة للقرية أيضاً. فلم يحدث على الإطلاق أن قصّت الفتيات المهذّبات شعورهن على هذا النحو في هذه المنطقة، وحتى في باريس. فلقد كان ذلك نادراً وغريباً، ومن الممكن أن يكون مقبولاً أو مستهجناً جداً، من الممكن أن يعني ذلك الكثير جداً، أو من الممكن أن يعني فقط إظهار جمال تكوين الرأس الذي لا يظهر أبداً في العادة.

أكلا شرائح اللحم نصف المطهوّة وبطاطس مهروسة ولوبيا صغيرة وسلاطة، وسألته إذا كان من الممكن أن يشربا «الناقل» قائلة: «إنه نبيذ عظيم للذين هم في حالة حبّ».

فكّر ديفيد، لقد كانت دائماً تتصرّف بما يتفق وسنّها بالضبط، التي كان حينئذٍ واحداً وعشرين عاماً. وكان فخوراً بها جداً من أجل ذلك. لكنها الليلة لم تَبْدُ على هذا النحو، فعظام خديها كانت تبدو واضحة بطريقة لم يرها أبداً من قبل، وعندما ابتسمت بدا على وجهها أنها منكسرة القلب.

* * *

كانت الحجرة مظلمة فيما عدا ضوء بسيط يأتي من الخارج. كان الجوّ بارداً حينئذٍ بفضلِ النَّسيمِ ولم يكن غطاء السرير موجوداً عليه.

- «ديف، ألا يضيرك لو ذهبنا إلى التهلكة؟».

قال: «كلا، يا فتاة».

- «لا تنادني بفتاة».

قال: «حيثما أحتويك فأنت فتاة».

احتوى نهديها وما حولهما بين يديه بشدة وأخذت أصابعه تنبسط وتنفرج مستشعراً إيّاها وتلك النضارةَ النافرة بين أصابعه.

قالت: «إنها مواهبي ليس إلا. والجديد يكمن في مفاجأتي. تحسّسْ، كلا، اتركهما، سيكونان موجودين مكانهما، تحسَّس خديَّ وخلف رقبتي. أوه يبدو ملمسه رائعاً جداً وحلواً ونظيفاً وجديداً. أرجو أن تحبّني يا ديفيد بالشكل الذي أنا عليه. أرجو أن تفهمني وتحبّني».

كان قد أغمض عينيه واستطاع أن يستشعر ثقل جسدها الطويل الخفيف فوقه، ونهديها يضغطان على صدره وشفتيها فوق شفتيه. وبينما هو راقد أحسّ بشيء ما، وإذ بيدها تتحسّسه وتبحث في أسفل فساعدها بيديه، بعد ذلك استلقى في الظلام ولم يكن يفكر في أيّ شيء على الإطلاق، وأحس فقط بالاكتئاب والغربة في داخله. قالت: «الآن ليس في استطاعتك أن تقول أيّنا هو الآخر، أتستطيع؟».

- «كلا».

قالت: «أنت تتحول، أوه تتحوّل، أنت تتحوّل. نعم أنت تتحوّل وأنت فتاتي كاترين. أرجوك أن تتحوّل وتصبح فتاتي وتَدَعَني أحتويك؟».

- «أنت كاترين».

- «لا، أنا بيتر. أنت فتاتي الرائعة كاترين. أنت جميلتي المحبوبة كاترين. كم كنت رائعاً جداً حتى تتحول. أوه، أشكرك يا كاترين، كثيراً جداً. أرجو أن تفهم. أرجو أن تعلم وتفهم. سأمارس الحب معك إلى الأبد».

في النهاية كان كلاهما منهمكاً للغاية وجائعاً، لكن الأمر لم ينته. رقدا جنباً إلى جنب في الظلام وأرجلهما متلامسة ورأسها على ذراعه. كان القمر قد طلع وكان بالحجرة شيء قليل من

الضوء. مرّت بيدها في اكتشاف أسفل بطنه دون أن تنظر وقالت:

- «هل تعتقد أنني شرّيرة؟».

- «بالطبع لا. لكن منذ متى فكرت في ذلك؟».

- «ليس طوال الوقت. لكن فكرت بما فيه الكفاية. كم كنت رائعاً حتى سمحت لذلك أن يحدث».

وضع الفتى ذراعيه حول الفتاة واحتضنها بشدّة وأحسّ بنهديها الرائعين على صدره وقبّلها في فمها الحلو. احتضنها بشدّة، وداخله كان يقول وداعاً، ووداعاً، ووداعاً.

- «دعينا نستلق ساكنين جداً وهادئين يحتضن كل منا الآخر ولا نفكر على الإطلاق». قال ذلك على حين كان قلبه يقول وداعاً يا كاترين. وداعاً يا فتاتي الحبيبة، وداعاً، وحظاً سعيداً، ووداعاً»[1].

(١) هذا هو الفصل الأول من رواية «ارنست همنغواي» التي نشرت مؤخراً بعد مرور أعوام على وفاته. وتصدر هذا الشهر عن دار الآداب. ترجمة الشريف خاطر.

دار الآداب تقدم

مجموعات شعرية

- كتاب الحصار — أدونيس
- بدر شاكر السياب — اختارها وقدم لها أدونيس
  مختارات من شعره
- علي محمود طه — اختارها وقدم لها صلاح عبد الصبور
  مختارات من شعره
- ابراهيم ناجي — اختارها وقدم لها أحمد عبد المعطي حجازي
  مختارات من شعره
- الوجود الدمية — قدم لها وترجمها أدونيس
- أوراق الجسد العائد من الموت — عبد العزيز المقالح
- فاحشة الحلم — حسن اللوزي
- الشوكة البنفسجية — محمد علي شمس الدين
- أناديك يا ملكي وحبيبي — محمد علي شمس الدين
- طيور إلى الشمس المرة — محمد علي شمس الدين
- عناوين سريعة لوطن مقتول — شوقي بزيع
- الرحيل إلى شمس يثرب — شوقي بزيع
- أغنيات حب على نهر الليطاني — شوقي بزيع
- اقصر عن حبك — جودت فخر الدين
- أوهام ريفية — جودت فخر الدين
- للرؤية وقت — جودت فخر الدين

منشورات دار الآداب - بيروت - لبنان
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ تلفون: ٨٠٣٧٧٨